

**مظاهر النظرة الإيمانية التوحيدية في أشعار العلامة السيد محمد حسين
فضل-الله**

الدكتور حسين مهتدي

الأستاذ المشارك بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة خليج فارس -

بوشهر- إيران

mohtadi@pgu.ac.ir

الأستاذ الدكتور حسين لفته حافظ

مركز دراسات الكوفة - جامعة الكوفة

Altamy176@gmail.com

**Manifestations of the Monotheistic Faith in the Poetry of the Scholar
Sayyid Muhammad Husayn Fadlallah**

Hossein Mohtadi

**Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature ,
Persian Gulf University , Bushehr , Iran**

Hossein Lifatuh Hafiz

Center of Studies Kufa , University of Kufa

Abstract:

Allamah Sayyid Muhammad Hussain Fazlullah, the Shia jurisprudent, commentator, literary and poet and poet, wrote poetry covering various subjects. One of the most important topics in his poetry is the various aspects of theism. The author of this article is to study and critique Allamah's poems based on his theist thoughts, expressing the rhetorical beauty used in his poetry. The poet's view of the God is a special one that shows the depth of his feelings and insights towards the great creator. We studied the relationship between Allamah Fazlullah and God in the following areas: Divine love, humbleness, submission to the Almighty God and confession to His providence. From the viewpoint of the poet, Allah Almighty is the secret and the primary cause of the being, and loves the love of his beloved. The Almighty God also has a great place in Allamah Fazlullah's prayers and supplication. Sayyid Muhammad Hussain Fazlullah used nature and its appearances as waterfall, springs, water and flowers to express his views and ideas in poetry, because divine beauty, as it is manifested in the people, manifests itself in nature through other beings. His poems are full of rhetorical features, such as metaphor, simile and repetition. Among the contexts in which God is manifested is prayer where the poet asks the God to award him bard al-yaqin (lit., "frost of certainty). In this research, we used a descriptive and analytical method to identify the relation between Allamah Sayyid Muhammad Hussain Fazlullah and the God. While studying the nature of this relationship in the Holy Qur'an, we carried out literary and rhetorical analysis, and from his divan, we chose the poet, "Qasa'id lil Is'lam wa al-Hayat" to achieve a more tangible result.

Key words : Monotheistic view , committed literature , Allamah Sayyid Muhammad Hussain Fazlullah , prayer ..

الملخص :

لقد أنشد العلامة السيد محمد حسين فضل الله -، الفقيه الشيعي، والمفسر، والأديب، والشاعر - أشعاره في موضوعات مختلفة. ومن أهم موضوعاته الشعرية، مظاهر النظرة التوحيدية في رؤية الشاعر. ينوي كاتب المقال أن يتناول دراسة قصائد العلامة ونقدها بالاعتماد على أفكاره التوحيدية ويستشفّ الجماليات البلاغية المستخدمة في أشعاره. نظرة الشاعر لله سبحانه وتعالى نظرة خاصة تحوي عمق ما كان يشعر به ويعيشه ويتحسس ويراه في الخالق العظيم. استخلص الباحث علاقة العلامة محمد حسين فضل الله الشعرية بالله تعالى في المحاور الآتية: محبة الله، والخشوع، والخضوع لله تعالى والإقرار بمشيئته؛ والله تعالى سر الكون وعلته الأولي، وشوق الشاعر إلي لقاء المحبوب؛ والله تعالى في دعاء ومناجاة العلامة فضل الله. اهتم السيد محمد حسين فضل الله بالطبيعة ومظاهرها كالشلال، والعين، والماء والورد وعبر عن ذلك بشعره؛ لأنّ الجمال الإلهي يتجلّي في الطبيعة من خلال الموجودات كما يتجلّي في الناس، وأشعاره مليئة بالصور البلاغية كالإستعارة، والتشبيه والتكرار، ومن المحاور التي يتجلّي الله تعالى فيها هو الدعاء والمناجاة، ويأمل الشاعر في هذه الأدعية من الله تعالى مقام برد اليقين. فقد اعتمد الباحث في دراسته على المنهج الوصفي التحليلي إذ يقوم على استقراء الأبيات التي تدلّ علي علاقة العلامة محمد حسين فضل الله الشعرية بالله تعالى ومن ثم تحليلها من ناحية أدبية وبلاغية ودراساتها ومرجعياتها القرآنية، وحددنا من دواوينه «قصائد للإسلام والحياة» لكي نستنتج نتيجة ملموسة.

الكلمات المفتاحية : النظرة الإيمانية ، الأدب الملتزم ، العلامة فضل الله -، الدعاء ..

١- المقدمة

العلامة السيد محمد حسين فضل الله مجتهد متجدد، وشاعر، ومفكر خدم الإسلام، وسجل حضوره الدائم في ساحة الأحداث و سعي إلي الفقه المتجدد وفتاواه تعالج مشاكل الناس بما تقتضيه متطلبات العصر، فيطلقها حلولاً واقعية ناجعة للتساؤلات والإشكالات التي يواجهها المسلم في الواقع المعقد. هو يعتقد بأن «الشعر إذا لم ينسجم في كل حاجات المجتمع الفنية والابداعية والفكرية والسياسية، فإنه يكون بلا مضمون لأن الشعر إذا ابتعد عن مضمون الحياة يصبح شيئاً لا معنى له، والشعر لا بد أن يحمل قضايا العصر، ونحن لا نؤمن بالشعر التقريري الخطابي كما يحاول بعض الشعراء أن يصوروا الشرق في الجانب السلبي بحيث يخيّل للإنسان أن علي الشرق أن يكون غريباً حتي يستطيع أن يجد نفسه» (١). والشاعر في موضوع الالتزام الشعري يقول: «إننا لا نريد من الأديب أن يفتعل الفكرة الملتزمة ليكون ملتزماً فإن ذلك ضد رسالة الأدب المرتكزة علي العفوية والإبداع، بل نعتقد أن الرسالة، حين تمتد في وعي الأديب وضميره وفكره، تحول كيان الإنسان إلي الالتزام العفوي الذي ينساب مع النفس بكل بساطة واندفاع....» (٢)، «أنا لا أؤمن بمسألة أن تفرض علي الشاعر التزاماً، فالشعر مثل الماء والهواء لا تستطيع أن تعلّبه... فالخصوصية سوف تحدّد للشاعر حركته» (٣)، ونفهم من أقواله هذه أن الالتزام ليس قيداً. الشاعر الملتزم الذي ينشده السيد، إذاً، هو الذي يعيش الواقع الإسلامي بكلّ حيثياته، يستخرج منه أدبه الرفيع بعد أن يعرضه علي الفكر الإسلامي الذي يحمله أن يتأثر به، وهذا ما يمكن استجلاؤه من قوله: «أنا لا أقول بأن علي الأديب أن يكون مصلحاً اجتماعياً علي حساب التصوير الفني، بل لا بدّ للأديب أن يعيش الإبداع الفني في طريقة التعبير، وفي الأخيلة وفي الصور، ولكن علي الأديب أن يكون ملتزماً بالإسلام، وملتزماً بالحياة، وقبل ذلك أن يكون ملتزماً بالله خالق الإنسان والحياة فلا يمكن للأديب المسلم أن لا يكون ملتزماً» (٤) فهم السيد للالتزام الشعري يتلخص، إذاً، بأن يلتزم الشاعر بقضايا مجتمعه، مع محافظته علي جمالية الشعر.

تحدث شعراء كثيرون عن خالقهم و إلههم وكلّ تناول هذا الموضوع من منظر وزاوية، ومن هؤلاء الشعراء هو العلامة السيد محمد حسين فضل الله الذي قضى قسماً

من حياته في النجف الأشرف ودرس في حوزتها العلمية، وأثرت هذه الحوزة تأثيراً واضحاً في شخصيته العلمية والأدبية والدينية. كثيراً ما يحضر الشاعر إلي مرقد الإمام علي عليه السلام للدعاء و مناجاته مع الله تعالى. تعرّفه علي المعارف الدينية ودراسته في حوزة النجف الأشرف العلمية أدّت إلي أن يخصّص الشاعر قسماً من أشعاره بخالقه وإليه فأنشد قصائد رائعة حول الله تعالى وبين فيها آراءه وأفكاره بالنسبة إلي خالقه.

٢- أسئلة البحث

إنّا في هذا المقال بصدد أن ندرس تجلّي الله في أشعار العلامة فضل الله. فإنّ الأسئلة التي سوف نجيب عنها هنا هي: ١- ما المكانة التي يحتلّها الله في رؤية الشاعر؟ ٢- ما مدى استخدام الشاعر للطبيعة وعناصرها في تبين نظره؟ ٣- إلى أيّ مدى، اعتمد العلامة فضل الله على البلاغة للتعبير عمّا يخالج صدره؟ ٤- ما هي المطالب التي يسألها الشاعر الله في مناجاته؟

٣- خلفية البحث

من خلال البحث في المكتبات والمصادر المعتمدة عثرنا على عدّة مؤلّفات حول شاعرية شاعرنا هذا وهي: ١- إسماعيل خليل، أبو صالح، السيد محمد حسين فضل الله شاعراً، دار الملاك، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م: قام الكاتب في كتابه هذا بدراسة الأغراض الشعرية والميزات الفنية لشعر الشاعر؛ ٢- فضل الله، محمد حسين، مطارحات في الشعر والفن والأدب، دار الملاك، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م يحتوي هذا الكتاب على مقابلات أجريت مع العلامة فضل الله وكذلك يشمل الخطابات التي ألقاها الآخرون حوله؛ ٣- علي رفعت، مهدي، الاتجاه الروحي في شعر السيد محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م: هذا الكتاب فريد في نوعه إلّا أنّه سلك مسلكاً يختلف عن هذه الدراسة لأنّه عالج موضوعات مختلفة في كتابه ونحن اكتفينا بموضوع محدّد وهو مظاهر النظرة التوحيدية في أشعار العلامة السيد محمد حسين فضل الله للوصول إلي نتيجة ملموسة؛ ٤- حوراني، رامز، شاعر الحياة، هذا الكتاب دراسة متأنية وشاملة سبر فيها المؤلف الأعماق البعيدة في وجدان الشاعر وفكره وسيكتشف القاريء من خلال هذه

الدراسة الوعي المبكر للشاعر بالمعاناة الكبرى التي غرقت فيها الأمة لابتعادها عن جوهر الرسالة الإسلامية.

٤- أسلوب البحث

قمنا في هذا المقال بعد إلقاء نظرة قصيرة على حياة الشاعر، باستخراج قصائد العلامة فضل الله حول الله عز وجل وذلك باستخدام الأسلوب الوصفي-التحليلي، وطرحنا الجوانب البلاغية لأشعاره في هذا المجال، على بساط التقييم الدقيق. وقد اخترنا من بين جميع قصائد الشاعر، موضوع النظرة التوحيدية في محاولة لمعرفة الصورة المعممة لرؤية الشاعر الله تعالى.

٥- نظرة في حياة العلامة فضل الله

«وُلِدَ سماحة آية الله السيد محمد حسين فضل الله في النجف الأشرف في سنة ١٣٥٤ هجرية الموافق لسنة ١٩٣٥ ميلادية» (٥) «من عائلة آل فضل الله التي تنتسب إلي الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)» (٦). كان أبوه السيد عبد الرؤوف فضل الله أحد كبار علماء الدين في النجف الأشرف وجبل عامل وكان شاعراً رقيقاً وذا مواهب أدبية. (٧) «جاء سماحة العلامة محمد حسين فضل الله إلي لبنان سنة ١٩٥٢م مع والده في زيارته الأولى لأقربائه وعمره كان حوالي ١٧ عاماً» (٨)، «غادر النجف الأشرف للمرة الأخيرة بصحبة والده سنة ١٩٩٦م متوجهاً إلي لبنان ليقيم في بيروت، في منطقة رأس النبعة» (٩). وانتقل إلي جوار رحمة الله سنة ٢٠١٠م في مستشفى بهمن في بيروت.

«ومن النشاطات الثقافية الأدبية للسيد أنه تعاون مع بعض الأقارب والأصدقاء كالشهيد مهدي الحكيم فأصدروا مجلة مكتوبة اسمها «الأدب» ما بين عامي ١٩٤٥ و١٩٥٠» (١٠). «لقد وعي السيد فضل الله الحالة الشعرية منذ طفولته حتي أنه نظم الشعر في العاشرة من عمره من خلال المجالس الأدبية التي كانت تعقد في النجف الأشرف» (١١) ومن الكتب الأدبية الحديثة التي كانت تصل إلي النجف الأشرف ويتلاقفها الأدباء والشعراء ومنهم السيد: مؤلفات «طه حسين» و«زكي مبارك» و«العقاد» و«مصطفى صادق الرافعي» و«أحمد حسن الزيات» و«سيد قطب»

و«جبران خليل جبران» و«ميخائيل نعيمة» وغيرهم ١٢، العلامة فضل الله بعد تصديه للمرجعية الدينية فإنه لم ينقطع عن التدريس وكان يلقي الدروس علي طلاب أعلي مراحل الدراسة الدينية (الخارج) سواء في بيته في الضاحية الجنوبية من بيروت أم في حوزة المرتضي في منطقة السيدة زينب عليها السلام في دمشق، وهذا بالإضافة إلي إمامته صلاة الجمعة وإلقائه الخطب في مسجد الحسين في الضاحية الجنوبية من بيروت. ١٣

لسماحة السيد محمد حسين فضل الله عشرات المؤلفات الإسلامية والفقهية والسياسية والشعرية تربو علي المئة، ومن أبرزها: «قضايانا علي ضوء الإسلام»، و«الحوار في القرآن»، و«خطوات علي طريق الإسلام»، و«حديث عاشوراء»، «دنيا المرأة»، و«من وحي القرآن في تفسير» ويقع في خمسة وعشرين جزءاً، «في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي».... بالإضافة إلي أربعة دواوين شعر: «يا ظلال الإسلام» رباعيات شعرية، و«قصائد للإسلام والحياة»، و«علي شاطئ الوجدان»، و«في دروب السبعين».

٦- مظاهر النظرة التوحيدية (الإيمانية) في شعر العلامة فضل الله

إن الله عز وجل وهو مظهر الجمال وخالق الجمال، يتبوأ في شعر العلامة فضل الله مكانة خاصة. إنه يظهر في أشعاره حبه ومودته لله تعالى متمتعاً بعاطفة صادقة تقع ضمن خصائص الشعر الممتاز، ويقرض الشعر محباً لمعبوده وخاشعاً له. أنشد محمد حسين فضل الله أشعاراً عن الله تعالى في ديوانه «قصائد للإسلام والحياة» والشاعر خصصه بفصل تحت عنوان «مع الله». الباحث عاجل في المقال علاقة السيد محمد حسين فضل الله الشعرية بالله تعالى واستخرجنا منه الموضوعات التي تدل علي هذه العلاقة ومن أبرزها هي: إظهار الخشوع والخضوع لله تعالى، الله مظهر الحقيقة والعلو، حب الشاعر ومودته لله، الله في أدعية العلامة فضل الله ومناجاته. وفي ما يأتي، تحليل يهدف إلى تصوير زوايا من مظاهر النظرة التوحيدية هذه في شعره.

٦-١ - إظهار الخشوع والخضوع لله تعالى

خشع: أصل واحد، يدل على التظامن، يقال خشع إذا تظامن و طأطأ رأسه، يخشع خشوعاً، و هو قريب المعنى من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن و الإقرار

بالاستخذاء، والخشوع في الصوت والبصر - خاشعة أبصارهم. قال ابن دريد: الخاشع: المستكين و الراكع و أما الخضوع: فهو جعل النفس متواضعا و مطيعا و مقادا (١٤) حبّ الشاعر ومودته لله تعالى، يحمله على الخضوع والخشوع إزاء الإرادة والمشية الإلهيتين والإقرار بفضله وكرمه. ويؤدي هذا الخضوع إلى أن يسأل المحب عن سرّ وجوده. فهو يرى الإرادة الإلهية مسيطراً عليه دائماً ويشعر بأنه يمثل أمامه في كلّ حال ويعدّ نفسه تجسيدا للإرادة الإلهية الطاهرة والقدسية، يقول الشاعر علي وزن الخفيف:

«١- ربّ أنت الحقيقة الحقّ من لي أن أناجيك في خشوع الحنين
٢- من أنا... من أكون... لو لم روحك الفيض في دمي كالعيون
٣- من أنا إنني إرادتك اليبضاء أن يغمر الضياء جفوني»^{١٥}

كرّر الشاعر في هذه الأبيات ضمير المتكلم وحده تسع مرّات في «رب، لي، أناجيك، أنا، أكون، دمي، أنا، إنني، جفوني» إذ تدلّ كلّها على شعور الشاعر بحقارته وخضوعه في مواجهة الله. عزّ وجلّ يرى الشاعر من خلال خضوعه وخشوعه أن الله تعالى هو الحقيقة المطلقة، إذ استخدم في البداية أسلوب النداء (رب) ليبين أن علاقة المخلوق مع الخالق هي عن طريق الدعاء والمناجاة. يأتي الشاعر بالاستفهام الإنكاري لكي ينتبه إلى سرّ وجود الإنسان. الفعل المضارع (أناجيك) يدلّ علي الاستمرار التجديدي أي الشاعر يناجي الله تعالى بخضوع وخشوع دائماً. ذكر الشاعر في البيت الثاني الخبر (من) مقدماً على المبتدأ (أنا) حتّى يشدّد على أهميّة هويّة الإنسان وسعيه لفهم هذه الهوية، ويبرهن على أن الإنسان لم يخلق عبثاً وأنه إلى الله يرجع: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٦) يشير العلامة فضل الله في ما يلي من شعره إلى القيمة الوجوديّة للإنسان مستعيناً باستفهام إنكاري آخر (من أكون) ويقول بأن الإنسان لا قيمة له من دون الله، كما أن القرآن يدعو الإنسان إلى التفكير في هذه الحقيقة: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (١٧) إنه يذكر بعد إقراره بتقدير الأوامر الإلهية لكلّ أحد، أن الفيض والرحمة يجريان في دماء الإنسان من الروح الإلهية، هما كالعيون

والجداول الجارية في الطبيعة، فمثلما تضخّ الجداول الحياة في الطبيعة وتبعث على اخضرارها، فإنّ الفيض والكرم الممنوحين من رحمة الله تعالى أيضاً يمدّان الإنسان بالحياة، والحيوية، والقوة، والعزة، والشباب.

يستخدم الشاعر في البيت التالي الاستفهام الإنكاري «مَنْ أنا...، مَنْ أكون...» ليشبّه أن وجوده كلّهُ هو من الفيض الإلهي الذي يجري في دمه كالينابيع، وليس هذا الفيض إلّا الإرادة الإلهية الصافية والطاهرة التي تدبّ في جسم الإنسان وبهذه الاستفهام يشير الشاعر إلى خضوعه وخشوعه لله تعالى. يقول الشاعر بعد التعبير عن هذه الحالات كلّها بأنّ نور الهداية الإلهية هو الذي ملأ عينه تماماً. والفيض الذي يجري في دمه هو الفيض الذي ينبع في وجوده كالعين النقية والصافية ويجسد عليه أصحاب النار ويتمنونه: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (١٨) استخدم الشاعر صنعة التشبيه في البيت الثاني (الفيض في دمي كالعيون) والمشبّه والفيض والمشبّه به هو العين وهو تشبيه مجمل لعدم وجود وجه الشبه ومرسل لوجود الأداة والشاعر ركز في تشبيهه علي الطبيعة والبيئة التي يحيا فيها، فجاءت صورة أكثر انسجاماً وارتباطاً بالحس والشعور. يجسد الشاعر في موضع آخر، خضوعه لله تعالى على النحو الآتي: (علي وزن الخفيف)

١- أنتَ رَبِّي وَقَدْ صَنَعْتَ بِنِعْمَا كَ كَيْ أَنِي... وفاضت النعماءُ

٢- أنتَ يَا رَبُّ عَالَمٌ بِجَاحَا تِي خَبِيرٌ بِمَا يَجُنُّ الْخَفَاءُ» (١٩)

لنلاحظ المقام الرفيع الذي ارتقي إليه الشاعر: إنه يخاطب الله تعالى: «قد صنعتَ بنعماك كياني» فهذه المخاطبة لا يمكن أن تحصل إلّا في حالات وجدانية وإيمانية نادرة. كرّر الشاعر في هذه الأبيات، ضمير المتكلم «الياء» أربع مرّات في «رَبِّي، كياني، رَبُّ، جراحاتي» حيث يدلّ ذلك على إظهار الشاعر الخضوع والحقارة في مواجهة الله. إنه بتكراره هذا في البيت الأوّل، يقرّر بربوبية الربّ؛ وهو الله الذي خلق السموات والأرض. فإنّ ربّه هو خالقه (وَقَدْ صَنَعْتَ بِنِعْمَا كياني). يشير الشاعر إلى حقيقة

مؤداها أن الله هو الربّ القدير والصانع والخالق للكون كله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٢٠)

يقرّ الشاعر تبعاً لذلك أن الله هو العالم بالغيب، وأن ما يفعله الإنسان في السرّ والعلانية، يعلم به الله (أنت يا ربّ عالمٌ بجراحاتي). والمقصود بـ«الجراحات» هنا أعمال يقترفها الإنسان، كما يقول الله تعالى في القرآن: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (٢١) «جرحتُم أي كسبتم من الأعمال» (٢٢). يقول الشاعر من خلال هذا الكلام، بأن الله يعلم بكل ما يفعله الإنسان وهو العالم بالغيب: (والله خبيرٌ بما تعملون) (٢٣)، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (٢٤). استخدم الشاعر صنعة الترادف في كلمات «عالم وخبير». لو راقبنا أنواع الجمل في هذه الأبيات لأمكننا حصرها فيما يلي: الجمل الإسمية والفعلية: الجمل الإسمية: أنت الحقيقة الحق، من لي، من أنا، من أكون، إنني إرادتك البيضاء، أنت عالمٌ بجراحاتي. الجمل الفعلية: قد صنعتُ بنعماءك كياني، فاضت النعماء، أناجيك، يغمر. وإن استعمال أساليب الإنشاء الطلبي كالاستفهام أعان الشاعر في إبراز عواطفه وأحاسيسه وهذه الأساليب التي برزت في النص كانت لها إبلاغية جامعة فهي أفادت الشاعر في توليد معانيه. والشاعر في معجمه الشعري استخدم عناصر الطبيعة كالعيون وهذه العناصر تدلّ علي أن الشاعر عندما يتطرق إلي المعاني العرفانية فإنه يعرضها من خلال الألفاظ وجمل منتزعة من عناصر الطبيعة في لغة فيها من الجاذبية ما يجعل المتلقي يحسب أن هذه الأشعار وصفية.

٢-٧- الله مظهر الحقيقة والعلوّ

لقد أورد الشاعر في أحد دواوينه تحت عنوان «قصائد للإسلام والحياة» قسماً من أشعاره يُسمّى «مع الله». وهناك يبين رؤاه بالنسبة لله تعالى والجمال. فإن الله قدير وعليّ في نظر الشاعر، ولهذا، يعيش الشاعر مع الله دوماً حتى يحصل منه على السكينة والسعادة وهو على يقين بأن الله على كل شيء قدير: (علي وزن الخفيف)

«١- أنا يا ربّ في طريقي أحثّ الـ خطو نحو العلا وأنت العلاء

٢- فاهدني الدرب، إن خطوي حيرا ن ودياي حيرة وشقاء» (٢٥)

في هذه الأبيات، ذكر الشاعر الضمير المنفصل «أنا» والضمير المتصل «ياء المتكلم» في «طريقي، فاهدني، خطوي، دنيائي». ويهدينا استخدام ضمائر المتكلم هذه إلى أن علاقة الشاعر مع الله تعالى لا تشبه علاقة عادية كالتي بين الأناش العادين؛ بل إن نظرتة إلى الله شبيهة بنظرة إنسان يعترف بضآلته تجاه الرب الأعلى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (٢٦)، ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ (٢٧).

يدل الجار والمجرور «في طريقي» على البعد المكاني لسير الشاعر وسلوكه. وإن هذه الحركة التي بدأها الشاعر في طريق السير والسلوك هي من أجل الوصول إلى الله عز وجل. ولنيل هذا الهدف، استعان الشاعر بالفعل «أحث» وأسندته إلى «الخطو» ليشجع خطواته على السرعة والدأب، وهذا يميّط اللثام عن مدى شوقه للوصول إلى الله عز وجل. كذلك استفاد الشاعر من الضمير المنفصل «أنت» على أنه مبتدأ لكي يجعل الأذان مشتاقة إلى سماع خبر ذلك «العلاء» وطريقه في السير والسوك. في بداية البيت الثاني، خرجت الجملة الإنشائية «فاهدني» من معنى الأمر الحقيقي؛ لأنها أمر من الأعلى إلى الأسفل ويفيد معنى الدعاء والتوسّل، ويطلب فيه الشاعر من الله أن يهديه إلى طريق يتخلّص فيه من الحيرة والشقاء.

ليس الله في رؤية العلامة محمد حسين فضل الله متعالياً فحسب؛ بل إنه يمثّل الحقيقة المطلقة إذ يراها في كلّ مكان وقد قرّر أن يعيش مع الله في كلّ حال وتكون له عيشة إلهية: (علي وزن الخفيف)

١- «رَبَّ أَنْتَ الْحَقِيقَةُ الْحَقُّ، مَنْ لِي أَنَا جِيكَ فِي خَشْوَعِ الْحَنِينِ

٢- مِنْكَ مِنْكَ الْحَيَاةُ تَخْضَرُ فِي رَوْ حِي زَهْوًا بِالْفُلِّ وَالْيَاسْمِينِ» (٢٨)

«يكشف لنا السيد عن الطاقة الروحية التي تتوقّد في أعماقه، وعن شحنات اليقين التي تتزوّد بها نفسه، عندما يتفكر بالخالق، وما يتراءى له من آياته في هذا الكون... ولكن كلّ هذه الآيات وما تحتضنه من الأسرار والإعجاز، تبقى قطرة من فيض الخالق وهذا ما يغزي النفس بمناجاته بخشوع وحنين.» (٢٩) في البيت الأول، خرج أسلوب

النداء «رب» من معناه الحقيقي فاستخدم للدعاء والمناجاة. إنه يعد الله عز وجل الحقيقة الحقة والمطلقة التي يسعى إليها الضالون المتعطشون للمعرفة، ولذلك، أسند الشاعر الضمير المنفصل «أنت» إلى «الحقيقة» وصفها «الحق» الذي هو من أسماء الله الحسنى. كما استخدم الشاعر أسلوب الاستفهام بواسطة «من» لبيان أنه لا يأمل أحداً غير الله ليستجيب له. استفاد الشاعر في عبارة «من لي أن أناجيك» من صناعة الالتفات، وكان عليه أن يقول في الأصل: «من لي أن أناجيه» حيث عدل عن الغائب إلى الخطاب.

قدم الشاعر الجار والمجرور «منك» وكرره مرتين ليؤكد على أن الحياة هي من جانب الله فقط؛ فإذا يعيش الإنسان، فذلك بسبب إرادته تعالى المبنية على عيش الإنسان. يواصل الشاعر ليسند الفعل المضارع «تخضر» إلى «الحياة»، و«الحياة» هنا استعارة مكنية؛ لأن الشاعر يرى الحياة على أنها نبتة أو زهرة تنمو وتخضر في فصل الربيع بعد أن مر بها شتاء بارد. تتنامى هذه الحياة في نفس الشاعر مثلما تنمو النبتة وإن الماء الذي يسقط عليها ينبت الياس والياسمين وأخيراً، تتسبب أزهار الياس والياسمين في حيوية الشاعر. يحمل الشاعر نظرة خاصة إلى الحياة بحيث تترك هذه النظرة تأثيراً عميقاً في نفسه ويؤدي ذلك إلى الحضور الدائم لله في وجوده إلى حد يعتبر الله سر وجود الإنسان وعلة سعادته.

يتطرق العلامة فضل الله وبما يتمتع به من روح دينية عالية وبما تفرض عليه السنة والشريعة، إلى التوحيد وحمد الله والتعريف بصفات الحق جل وعلا في أشعاره، ولذلك، فإن الله في نظر الشاعر، أحد ومظهر طهارة، ويعد كل ما في الدنيا من الله وأن الكل فانون غير ذاته الأحد: (علي وزن الخفيف)

«١- أهد أنت يا إلهي من الناس، وما الكون؟ أنت أنت الحقيقة

٢- كلنا في الظلال نخطو وفي الشمس نزول الظلال وهي مشوقة» (٣٠)

في البيت الأول، جاء تقديم الخبر «الأحد» على المبتدأ «أنت» للتخصيص والتأكيد على أهمية وحدانية الله تعالى وعدم الإشراك به. يقوم الشاعر من خلال هذا الأسلوب بمحصر الوحدانية في الله حيث يذكر ذلك بهذه الآيات القرآنية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ

أَحَدُ ١) اللَّهُ أَصْكَمُ ٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ٣) ﴿٣١﴾ في البيت الأول استخدم الشاعر بتكراره الضمير «أنت» صناعة التكرار وذلك للتأكيد على أن الحقيقة تختص بالله لا غير. يستعمل الشاعر في ما يلي البيت الأول، حرف النداء «يا» حيث يدل ذلك على اقترابه من الله، والشاعر على يقين بأن قلبه يطمئن بذكره ومناجاته. يوظف الشاعر في ما يوظفه، أسلوب الاستفهام «من الناس وما الكون؟» ليبين من خلال هذا الاستفهام أن لا حقيقة سوى الله، والكون كله ينبع من قدرته تعالى، ولا معنى لشيء من دون الحقيقة الإلهية: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيَّا قَانٍ ٤) وَبَعَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٥)﴾ (٣٢) من جانب آخر، فإن استخدام الاستفهام هنا دلالة على حقارة الإنسان والكون وضآلتهما بالنسبة إلى الله تعالى. فيؤكد الشاعر مرة أخرى وبتكراره الضمير «أنت» على أن الحقيقة المطلقة هي لله سبحانه. يذكر الشاعر في البيت الثاني أن كل ما يكون خارجاً عن دائرة الله، يسير في الضلالة والظلمة؛ لأن الله هو نور السموات والأرض ويهدي من يشاء بهذا النور. يستمر الشاعر قائلاً «أن الناس كلهم يعيشون في الظلام والضلالة، والإنسان يواجه المشاكل والمخاطر التي لا يجرؤ علي مقاومتها أو صدها إلّا بالتزود من شمس الحقيقة ونور اليقين». (٣٣) تشير كلمة «كلنا» إلى أن الناس إذا ما ابتعدوا عن الحقيقة الإلهية، قبعوا في الضلالة. إن الإتيان بالفعل «نخطو» يرشدنا إلى أن الناس سائرون في الضلالة. «الظلال» بمعنى «الأفياء»، ويكنى بها هنا عن «الظلام» وتقابلها كلمة «الشمس» والمراد بالأخيرة هو «النور»؛ يعني ذلك أنه إذا طلعت شمس الحقيقة الإلهية، حجب ظلام الجهل والانحراف؛ فإن الذي يسير ويسلك على طريق الحقيقة الإلهية، يهديه الله عز وجل من الظلمات إلى النور، والذي يخرج عن هذا الطريق، يجره الله إلى الظلام: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ٦)﴾. (٣٤)

وهكذا نجد أن الشاعر يحمل نظرة خاصة إلى الله سبحانه، بحيث يرى الله معه في كل حال ويعيش معه. فهذا أمر أكد الشاعر نفسه عليه: «أنا عشت في كل تجربتي مع الله، عشت مع الله في آلامي وفي أحلامي وفي علاقتي بالحياة وبالناس في كل التفاصيل التي تمر بالحياة». (٣٥)

٣-٧- حب الشاعر ومودته لله

يحب الشاعر الله تعالى بكل ما لديه من جوارح. فيقول في ذلك: «فأنا أتحدث مع الله حتي والناس من حولي لأخذ لحظة شعورية أعبر فيها لله عن شكري في ما يستوجب الشكر، عن ألمي تارة عندما أعيش بعض الأحلام» (٣٦) إن محاولة تكلم الشاعر مع الله تعالى تشبه تكلم المحب مع المحبوب حيث يرى في الأخير كل ما يحتاج إليه. إنه رحمان رحيم وقد بسطت موائد رحمته في كل مكان؛ لذلك فإن إلهاً كهذا يستحق أن يكلمه الإنسان في جميع لحظات حياته ويعيش معه. «إن الله هو سر وجوده وسعادته فلا يملك الإنسان أية لحظة أو أي موقع يغيب فيه عن الله سبحانه وتعالى». (٣٧) ولهذا، فإن الحب والمودة لله يشغلان مكانة خاصة في شعر العلامة فضل الله خاصة أن القرآن يؤكد على أن الحب والمودة إزاء الله تعالى لا يجتمعان في قلب الإنسان مع الحب والمودة إزاء الذين يعارضون الله ورسوله: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (٣٨) يظهر الشاعر في قصيدة له بعنوان «أحبك يا رب» أسباب حبه ومودته لله جل وعلا: (علي وزن المتقارب)

- ١- أحبك يا رب حب الحياة تفجر في راحتها العطاء
- ٢- فمبك الوجود بكل رؤاه بكل ذراه ومنك الرخاء» ٣٩

صور الشاعر مودته ومحبه لله تعالى انطلاقاً من النظرة إلى الدنيا ومشاهدة النعم الإلهية فيها. فقد جاء الفعل «أحب» في البيت الأول مضارعاً يدل على الاستمرار وعلى أن الشاعر لم يكن يحب الله في الماضي فحسب؛ بل يحبه في الزمن الحاضر وفي ما يستقبل من الزمن أيضاً. وهذا حب غمر كيان الشاعر وحمله على أن يقيم علاقة مع محبوبه. استخدم الشاعر في المصراع الأول المفعول المطلق «حب» لبيان النوع لكي يبين نوع محبته. وقد أخرج بهذا الأسلوب، «الحياة» من معناها العادي ومنحها هوية حية كالإنسان والنبوع. استفاد الشاعر هنا من الاستعارة المكنية فشبه «الحياة» بإنسان تنبع وتنهمر من يديه عيون الخير والبركة. يبرهن الشاعر من خلال هذا الأسلوب على كيفية حبه لله سبحانه وتعالى؛ بمعنى أنه مثلما يحب الإنسان المحب كل شيء من أجل محبوبه

ويفصح عن مودته لمن هو حوله، فإن العيون هي الأخرى تصبّ مياهها إلى ما حولها في فصل الربيع فتتمتع السهول المحيطة بها بهذه المياه.

تبين في البيت الأول نوع مودة الشاعر وحبه لقاء الله عز وجل وأشير في البيت الثاني إلى سبب هذا الحب وهذه المودة. فيرى الشاعر أن سبب هذا الحب يعود إلى أن الوجود والإنسان من الأساس هما من الله ولهذا السبب، يحب الإنسان الله. ومن أجل ذلك، قدم الشاعر الجار والمجرور «منك» على المبتدأ «الوجود» ليشير إلى مبدأ ينبع منه الخير والبركة وهو الله تعالى. والآن هل هناك من يخالف الشاعر عقيدته في أن الوجود بجميع آفاقه وجماله ينشأ من الله؟! تدل المفردة «ذراه» على أن الوجود إلى جانب ما فيه من نعم لا تحصى، لا ينحصر في الأرض؛ بل هو موجود في «الذرى» (المرتفعات والسموات)، والسماء هي التي تحتضن الأمطار قبيل وصولها إلى الأرض.

من الأسباب الأخرى لحب الشاعر ومودته إزاء الله تعالى، أن الله مقصد يرومه التائبون وهو مدعاة رحمة وسكينة واطمئنان؛ لأن الله خلق الحياة من منطلق الدعوة إلى النور والهداية والإيمان: (علي وزن السريع)

- | | |
|-----------------------|-----------------------|
| غفوراً كما النور يطوي | ١- أحبك يا رب رباً |
| ترفرق فيه الرضا | ٢- كشلال حب كينبوع |
| تغسل رجس | ٣- فأنت إلهي للمذنبين |

يقول الشاعر في البيت الأول بأنه يحب الله تعالى؛ لأن الله غفور رحيم: (إن الله غفور رحيم) (٤١) والله الغفور هو كالنور، نور اليقين والهدى الذي يزيل به التائبون الظلمات عنهم. شبه الشاعر في البيت الثاني غفران الله بـ«الشلال» و«الينبوع»؛ أي يسع غفران الله الكون والكائنات كلها، كما تروي مياه الشلالات والينابيع جميع الناس والطبيعة. لم يعد الينبوع ينبوعاً عادياً؛ بل يسطع فيه «الرضا والسلام» وهذا الرضا والسلام يتبادله الحب والمحبوب، فكما يقول الله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٤٢). في رأي الشاعر الجمال الطبيعي منفذ إلي الجمال الإلهي فجمال الطبيعة الذي يصوره الشاعر هو مظهر من مظاهر جمال الوجود.

وفي البيت الأخير، «الضمير المبتدأ (أنت) عائد إلي الله تعالى، وهذا ما يؤكد الشاعر بالنداء (إلهي) المضاف إلي ياء المتكلم مع ما في هذه الإضافة من إقرار بالألوهية والوحدانية. ويأتي الجار والمجرور (للمذنبين) وهنا يطرح هذا السؤال: من يسعى إلي مغفرة الله وطلب السماح؟ إنهم المذنبون الذين وردوا شلال الحب وينبوع الوحي حيث يترقق الرضا والسلام والطهارة ويظهر الله هؤلاء المذنبين ويغسل عنهم الذنوب الكثيرة.» (٤٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (٤٤)، ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ (٤٥).

الحب والتعلق الذي يظهرهما الشاعر في مواجهة الله هما على درجة يحترق معها في طريقه إلى المحبوب والمعشوق بنار الحب والعشق، شأنه شأن فراشة تحوم حول الشمعة وتكتوي بنارها حباً لها. ويستمر الاحتراق هذا إلى أن ينال الشاعر محبوبه؛ أي الله تعالى. يصور الشاعر اشتياقه هذا كما يأتي: (علي وزن السريع)

وفي كياني لهفة للمدي المجهول... للغيب... فهل نلتقي (٤٦)

إن الشاعر يعيش الأجواء الصوفية منذ صباه... ونعتقد أن هذا الميل عند السيد قد نشأ بفعل الأجواء الإيمانية التي كانت تخيم علي أسرته. ومن يشب في هذه الأجواء يدرك شفافية الروح وعالمها الخاص وتلفها للعودة إلي جوهرها، ويبدو ذلك جلياً في قول السيد: «وفي كياني لهفة للغيب» وهذه اللفظة التي تتوقد في أعماقه جعلته ينتمي إلي المخلقين بخيالهم إلي عالم السماء بعيداً من عالم الأرض» (٤٧) هناك في ذات الشاعر حال لم يعد باستطاعته الاستقرار عليها؛ بل يريد أن يطير ويخلق إلى ما لا نهاية له بشوق ولهفة، ويرفرف بأجنحته نحو عالم الغيب، وينتقل إلى جنة أعدها الله للمتقين. وهذا البيت يشير إلي هذه الآيات الكريمة: وهو يؤمن بالغيب: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (٤٨) ليس للحرف «هل» معنى الاستفهام؛ بل يفيد معنى الترجي فيعقد الشاعر به الأمل في لقاء محبوبه. السيد في هذه البيت قد حلق بعيداً في الفضاء الصوفي وفيه لهفة للغيب وإنها حالة روحية يعيشها الإنسان، وتدفعنا هذه الحالة إلي الإقلاع ولو جزئياً عن السير وراء اشباع شهواتنا من ماديات الحياة الدنيا، وترفعنا من الآفاق المحدودة إلي فضاءات

الروح حيث الصفاء والقناعة والاطمئنان والشعور بالأمان في واحات الإيمان المتجدد
فيها. (٤٩)

يذكر الشاعر في موضع آخر أن الدنيا مكان يصيبه بالأذى الشديد. فإنه يعيش في
دنيا مليئة بالأحقاد يتسابق الناس فيها على جمع المال؛ ولهذا، ينوي الشاعر الابتعاد عن
أناس كهؤلاء يعيشون في ظلمة الضغائن. ينشد الشاعر في قصيدته «في رحاب الفضاء»:
(علي وزن السريع)

١- ضُمْنِي في بحيرة الحبّ إنّي أقطعُ العمرَ في دُجَي البغضاء
٢- المغنّون في الظلال كثيرو نـ بـوحي النـوازع السـوداء
٣- يـرهبـون الحـياة، بالحقـد إمّا فتـحّ الحـبّ أعين الأحياء» ٥٠

الشاعر في هذه الأبيات يشير إلى أنه يشترك إلى الحبيب وهو يحاول التحليق إليه
عبر الخيال حتى تذهب همومه ويغمره حنان الله وكله آمانياته أن يتخلص من ضجيج
الدنيا وما فيها من التنافس على القشور والتي لا يأخذ منها الإنسان السوي المؤمن
بخالقه، إلّا تجرع الآلام والاكثواء بنار العذاب والأذى. لقد خرج فعل الأمر «ضُمْنِي»
هنا من معناه الأصلي واستخدم بمعنى الدعاء والأمل؛ لأنه طلب من الأسفل إلى
الأعلى. الفاعل في «ضُمْنِي» هو الله القادر المتعال حيث يطلب الشاعر من المحبوب في
تضرعه إليه أن يحتضنه في بحيرة حبه؛ لأنّ الناس حول الشاعر يغلب عليهم الخداع
والحقْد؛ والحقْد هذا يجلب معه الظلام الذي يضع الإنسان فيه طريق الهداية؛ ولذلك،
يعتبر في هذه الظروف أنّ الطريق الوحيد للخلاص هو الرجوع إلى الله ولقائه. «بحيرة
الحب» هنا إضافة تشبيهية. فيقول الشاعر بإضافته «البحيرة» إلى «الحب» بأنّ البحيرة
رمز للخير والسّخاء، ومن هنا، كلّ ما تحمله تلك البحيرة، يتمتع به «حب» المحبوب هذا
أيضاً. أمّا فيما يتعلق بالإضافة التشبيهية «دجى البغضاء»، فيقول الشاعر بأنّ «البغضاء»
ليست حقداً اعتيادياً، بل هي حقْد يُحمَل بالظلام كالليل ويؤدّي بالإنسان إلى إضاعة
السيب الإلهي. يشكو الشاعر في البيت الثاني وللمرة الثانية، الفساد في المجتمع. ويقدم في
البيت الأخير، الحبّ والعشق لله على أنهما الطريق الوحيد للتخلص من الأحقاد
ومظاهر الفساد. يعتقد الشاعر أنّ الطريق الإلهي هو طريق الحبّ والمودة والرحمة
قائلاً: (علي وزن الخفيف)

دَرْبُهُ الحُبُّ، والسَّامَاحَةُ وَاللَّطْفُ — فُ بَرُوحُ نَفَاحَةِ الْأَشْدَاءِ (٥١)
يصف الشاعر في قصيدته «صوفيّة الشاعر» لهفته ولوعته للوصول إلى الله وعالم

- «١- وأنا هائمٌ وروحي تلتا عٌ ودنياي في سَمَاكَ تجولُ
٢- استحثُّ الخطي إليك كأن في جانحي نَاراً أَكُولُ
٣- حملتني روحي إليك فبارك —ها وروحي كما علّمت
الملائك فيقول: (علي وزن الخفيف)

من هذه الأبيات يبدو الشاعر هائم بالحُبِّ الإلهي، فروحه تستحث الخطي إلى السماء ونيران الشوق تتوقّد تحت جناحيه طلباً لتقبُّل الله هذه الروح الطيبة التي لم تَدنسها الدنيا وهي ليست قادرةً علي البقاء في عالم يمرح الإثم عليه. يذكر الشاعر في البيت الأوّل أنّه وبسبب الأحقاد والقذارات الموجودة على وجه الأرض، قد احتار وتيمّه الحُبُّ الإلهي واكتوت روحه بالعشق الإلهي. يدلّ الفعل المضارع «تلتاع» على استمرار لوعة الشاعر. وكذلك تشير العبارة «روحي تلتاع» إلى «أنّه هائم علي وجه الأرض بجسده المادي، بينما روحه تحلق في أجواء الفضاء ورحاب العلياء، مترفعة عن أدران الدنّيا وشهواتها، لكنّها حائرة. ودنيا الشاعر تجول سماء الخالق، حيث الإمتداد اللانهائي وحيث اللاحدود.» (٥٣) يبيّن الفعل «استحثّ» في البيت الثاني أنّه ليست خطاه قادرةً على الحراك؛ لكنّ الشاعر يحملها على الحراك أملاً في نيل حضرة المحبوب. يواصل الشاعر الإنشاد فيقول بأنّه مثلما تحرق النار الخشب، يزيل الحسد آثار الخيرات تأكل نار الاشتياق للوصول إلى الله كيان الشاعر، وقد شبّه الشوق هنا بالنار.

في البيت الثالث، يدعو الشاعر الخير والبركة لروحه؛ لأنّ التعب والملل قد ألما به وسلباه قدرة الحركة إلى المحبوب، وروحه هي التي تجذبه إلى خالقه، والتي ليست روحاً عادية؛ بل طاهرة نقيّة لا يهتدي أحد إلى كُنْهها والسرّ المكنون فيها؛ فلا تتمنى روح كهذه إلّا أن تعود إلى خالقها. «باركها» فعل أمر فاعله الله؛ ولكن ليس الأمر هو المراد هنا؛ بل يُستفاد منه الدعاء والتوسّل من الشاعر الذي يفتقر ويحتاج إلى خير الله وبركته، ولا بركة ومجد إلّا مَنْ يتبوأ مقاماً رفيعاً ومرتبة عظمى.

يحفز الشاعر للوصول إلى الله عز وجل، حب وعشق في أعلى درجاتهما: (علي وزن الخفيف)

«أنا يا رب في طريقي أحث الـ خطو نحو العلا وأنت العلاء» (٥٤)

استخدم الشاعر في هذا البيت أسلوب النداء «يا رب» وهذا يدل على استئناس الشاعر بالله وتقربه إليه. ودلالة الفعل المضارع «أحث» هي الاستمرار؛ أي أن تشجيع الخطى وترغيبها يتصفان بالدوام والاستمرار.

الشاعر لا يحب الله طمعاً في جنته ولا خوفاً من نار هبل إنه يحب الله تعالى لأنه الحب المطلق والأصل المطلق ومبدأ الوجود. الشاعر كان علامة، فقيهاً، مجتهداً وشاعراً ومن كان في هذا الموقع لا يعقل أن يكتفي بالظاهر ولا يعقل أن يتوقف عند الزينة المريئية بألوانها الزامية وأشكالها الباهرة من غير التساؤل عن مصدر الخلق الذي أبدع هذا الجمال فهذا الكون اللامحدود بكواكبه ونجومه وبحاره ونباتاته ومخلوقاته صورة تنقلنا إلى عظمة الخالق، وكمال حكمته وجماله. لا يعتبر الشاعر في قصيدته «أنا أهواك» سبب حبه لله، النعم الدنيوية الطمع في الجنة؛ بل يحب الله تعالى عشقاً له: (علي وزن السريع)

١- أنا أهواك، لا لنعماك ي، ولا لجنّة عدن

٢- أنا أهواك للهوي ترعش ح بأفئائه ويهتز لحنى» (٥٥)

لو أنعمنا النظر في حقل الحب والمحبة، لوجدناه دالاً على حالة الحب الإلهي التي عاشها الشاعر في لحظات صوفية رائعة. من الملاحظ أن الجمل الفعلية هي الطاغية على أبيات هذا الحقل وهذا ما يؤكد أن الأفعال المضارعة في حقل الحب والمحبة تدل على البقاء والحركة (أحب، استحث، أهوي، تغسل، تلتاع، تجول، يطوي، أكل، ترعش، يهتز) ونري في معجم الطبيعة ألفاظاً مختلفة ك (الشلال، ينبوع، النور، النار، الدجي) وهذا الحقل مليء بالمصطلحات العرفانية ك (المدي المجهول، الغيب، اللهفة، الهائم، الهوي، بحيرة الحب) وهذه المصطلحات العرفانية تدل على أن الشاعر عاش الأجواء الصوفية منذ صباه ومن يشب في هذه الأجواء يدرك شفافية الروح وعالمها الخاص وتلفها إلى جوهرها.

٧-٤- الله في أدعية العلامة فضل الله ومناجاته

كان للدعاء والمناجاة حقل واسع من ديوان الشاعر وينقسم حقل الدعاء في ديوان الشاعر علي قسمين: القسم الأول فردي والثاني جماعي يمثل صوت الأمة وصوت الجماعة الرائدة المؤمنة فيها. «وفي رحاب الدعاء والتوسل يعترف السيد بذنوبه التي يرجو الله في غفرانها، لاسيما أنه يعيش في عالم الأهواء والبلاء لأن الآثام قد أثقلت ظهره، فحملته وقد أجهد ركبته وجلله الحياء وهو يعترف خاشعاً متذلاً منكسراً غير أنه يأمل رحمة الله الواسعة ويرجو عفوه وغفرانه.» (٥٦) ورد في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الدعاء مخ العبادة.» (٥٧) يشير كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا إلى أهمية الدعاء مقارنة بالعبادات الأخرى. بطبيعة الحال، يراد بالدعاء، هو الذي يتم عن وعي وتفكر وتعقل. فيقول الله تعالى: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٥٨) جاء في تفسير «جوامع الجامع» ذيل هذه الآية: «في الحديث: الدعاء هو العبادة.» (٥٩) يؤكد العلامة محمد حسين فضل الله علي الدعاء ويقول حول أهمية الدعاء: «وإن الداعي - العابد - يحفظ ويلزم الخط المستمر الواصل بين الله سبحانه وبين عباده، الذي يؤكد وعي الإنسان معني الألوهية في الله في علاقته بمعني العبودية في الإنسان، في الإحساس بالفقر المطلق أمام الغني المطلق، حيث يرتبط العبد بربه من خلال ارتباط وجوده وكل حاجته به.» (٦٠) يقول العلامة في إحدى مقابلاته: «كنت في بداية طفولتي معنياً بأن أذهب إلي مقام الإمام (ع) في شهر رمضان، لأقرأ الأدعية للمؤمنين، حيث ينتظرنني المؤمنون لأقرأ لهم الأدعية والإبتهالات وكان بي شغف في هذا الدعاء.» (٦١) ومن هنا، أدت تربيته في الحوزة العلمية في النجف الأشرف وتأثره بالقرآن إلى أن يشغل الدعاء ومناجاة الله مكانة متميزة في شعره. يرى العلامة فضل الله التحلي بالأمل ضرورة وشرطاً مسبقاً للتقرب إلى الساحة القدسية للحق سبحانه وتعالى والاستمتاع بالرحمة الإلهية العامة. ولم يبق لدي الشاعر المؤمن غير اللجوء إلي معتمده الكبير وركنه العتيد الله سبحانه وتعالى ويتفوه الشاعر بما يكن صدره على لسان مذنّب أمضى عمره كله في المعاصي وهو يناجي ربه في دعائه الفردي: (علي وزن الخفيف)

- «١- وأنا مَنْ أنا... سَوِيَّ الْفَقْرِ حَمَّةٌ وَالْعَفْوُ حَسْبَ قَلْبِي الرَّجَاءُ
٢- فَإِذَا شِئْتُ أَنْ تُعَذِّبَ جِسْمِي بَغْوَايَاتِي فَحَسْبِيَ الدُّعَاءُ
٣- دَعُ لِسَانِي يَدْعُوكَ يَا رَبِّ وَافْعَلْ بِي مَا شِئْتُ

الشاعر في دعائه الفردي هو العبد المذنب الذي يطلب رحمة الله وغفرانه ويستمد من الله تعالى العون علي طاعته ونري تأثير الصحيفة السجادية في دعاء الشاعر وهذا ليس أمراً غريباً لأن الشاعر منذ صباه قد ألف أجواء الدعاء وهذا هو الغالب في ديوان الشاعر. «٦٣ يبدأ الشاعر البيت الأول بإظهار الحقارة أمام الله تعالى وهو يطمح إلى رحمته ومغفرته. أورد الشاعر في البيت الثاني الفعل «شئت»؛ أي: بيدك كل شيء وإذا أردت تعذيبني على ما بدر مني من عثرات ومعاصي، فلن أفقد أملتي؛ لأنني أتضرع إليك متسلحاً بسلاح الدعاء وأعقد الأمل في مغفرتك. الفعل «دع» في البيت الثاني ليس للأمر؛ بل فيه معنى الدعاء والتوسل. فيطلب الشاعر من الله أن يخلص عضواً من أعضائه ويعفيه من العذاب؛ فهو يريد من الله أن يطلق لسانه؛ لأنه يستطيع تسبيح الله بلسانه ذاك ودعوته ومناداته والشكر على نعمه. وفي الختام، يسأل الله أن يفعل في حقه كل ما يشاء؛ لأنه يخضع للأمر الإلهي ويستسلم له.

يطلب الشاعر من الله في موضع آخر من شعره أن يهديه إلى الصراط السوي:
(علي وزن الخفيف)

- «رَبِّ رَحْمَاكَ قَدْ ضَلَلْتُ وَالْهُدَى فَاهْدِنِي صِرَاطاً سَوِيًّا» ٦٤
«فاهدني الدرب، إن خطوي حيرا ن ودنيائي حيرة وشقاء» ٦٥

لقد غرق الشاعر في عشقه للخالق بناء علي كلمة «رحماك» في هذه القصيدة وهي تدل علي أن لا ملجأ للشاعر غير باب رحمة الله وهو غير يائس من رحمته التي وسعت كل شيء واشتاق الشاعر إلي رحمة التي أملها في الزمن الذي كثرت الأهواء ليفكر في ذاته، وليؤمن أن التوبة والغربة والضياح درب إلي اليقين الذي أحبه. ويسأل الله تعالى الصراط المستقيم لأن طريق الضياء عند الله هي طريق الله ويطلب من الله تعالى قلب الإيمان المطمئن الرضي. يذكر الشاعر في هذين البيتين أحد أهم مطالبه وهو أنه قد أضاع سبيل الهدى، فيسأل الله أن يهديه إلى الصراط المستقيم: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

مظاهر النظرة الإيمانية التوحيدية في أشعار العلامة السيد محمد حسين فضل الله..... (341)

(٦٦) ويطلب الشاعر من الله في موضع آخر أن يمنحه المقام العرفاني «برد اليقين»: (علي وزن الخفيف)

«رَبِّ هَبْنِي بَرْدَ الْيَقِينِ فَقَلْبِي شَعْلَةً مَاجَ حَوْلَهَا» (٦٧)

يطلب الشاعر في هذا البيت مقام «برد اليقين» بالقلب لا بالعقل فالقلب عنده هو كعبة الأسرار. وما «برد اليقين» الذي يطالب به الشاعر؟ برد اليقين هو من المقامات العرفانية السامية والمعنوية التي ينالها الإنسان السالك بعد اجتيازه مقامات كعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. وهو أعلى مقام وجودي وتقرّب خالص إلى الله تعالى يكتسب الإنسان باهتدائه إلى هذا المقام، السكينة الوجدانية. ورد في حديث عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): «طوبى لمن بوشر قلبه ببرد اليقين». (٦٨)

يأمل الشاعر في قصيدة أخرى في العفو عن ذنوبه، وإن كبرت: (علي وزن الخفيف)

«أنا راج غفران ذنبي، وإن -بنتن الذنوب مني- الفضاء» (٦٩)

يناجي ويدعو العلامة فضل الله في غالب الأحوال، في جنح الليل وفي حرم الإمام علي عليه السلام حيث يبكي ويتضرع ويطلب من الله الحب العلوي: (علي وزن الخفيف)

«١- وَيَنَاجِيكَ فِي إِبْتِهَالٍ مَعَ الْيَلِ لِفَتْهَمِي الدُّمُوعُ مِنْ نَازِلِيَا
٢- لَمْ يَجِدْ فِي الْوُجُودِ قَلْبًا حَنُونًا فَأَنَلَهُ حَنَانُكَ الْعُلُويَا» (٧٠)
يشير ذلك كله إلى أنه يناجي ربه في ظلمة الليل مخلصاً ومقرراً بذنوبه ويطلب من الله الحب العلوي كسيراً قلبه لينال معه الهدوء والسكينة.

ومن أمثلة دعاء الشاعر الجماعي إذ ينشد: (علي وزن الخفيف)

أنت حسبي يا رب إن جنت الأحوال حولي من عاديّات الزمان
كل عمري للحق للخير للإسلام، للنور في ربيع الجنان
أبدأ نحن جند دينك في الساحة نحيًا لموعد الإيمان
إنها قصة الجهاد إذا اشتدت علي الدرب هجمة الطغيان (٧١)

إن الشاعر لا يجد مخرجاً لأتمته من هذه المشكلات إلّا مناجاة الله العليّ القدير علّه يستجيب لدعائه ويهدي هذه الأمة من جديد إلي جوهر الرسالة الإسلامية. الشاعر في دعائه الجماعي يسير في مسيرة الكدح والجهاد والدعوة والوقوف بوجه الأعداء بوجوههم المتعددة. فالحس الجمعي الإيماني للجماعة المؤمنة يجعلها أكثر قدرة علي خوض الصراع في غمرة من الإحساس بالمدد الإلهي والتسديد الإلهي الذي يستنزل بالدعاء والصدق والوحدة. وهكذا إن الله تعالى يبارك هؤلاء الذين يجدون في طريق الجهاد ويقرنون القول بالفعل.

أهمّ الألفاظ والمفردات ومتعلقاتها الدالة علي النظرة التوحيدية (الإيمانية) في أشعار العلامة السيد حسين فضل الله

ربّ	الله	إله	العالم	الخالق	قَدَرْتُ	هَبْ	رُحْمَاكَ	الحبّ	العلاء
العلّي	خلقتني	السملة	اللطيف	غفور	غفران	الحقيقة	الطهر	الإسلام	إيمان
القرآن	نوحّد	يقود	الهدى	الضياء	الإيجاد	التدبير	الرّحمة	العفو	التجوي
الدعاء	اهدني	صراطاً سويّاً	الرضا	برد اليقين	هَناء	ابتهاّل	نؤمن	وليّ	خير
القلب	الروح	الأرض	الكون	الشراب	الطعام	الشمس	السماء	الينابيع	هَبْ
اهدني	أعطني	نَعْتَبُ	أرجو	نَزَلْ	أحدّ	يكشف	ضُمْنِي	أودعتْ	النور
الجنان	الجهاد	الحنون	الرجاء	أهواك	هاتم	تلتاع	لهفة للغيب	الرضا	السلام

٨- النتيجة

نستنتج من هذا البحث م يأتي:

- ١- يستعين العلامة فضل الله في أشعاره بعناصر الطبيعة؛ مثل: الأزهار، والورود، والشّلالات، والينابيع، والمياه، و... لكي يستطيع الإنسان بعد التفكير في خلقته، أن يعرف الله معرفة أفضل وهذا ما يدعو إليه الله الإنسان في القرآن الكريم.
- ٢- يشير الشاعر إلى كيفية علاقته مع الله، ويرى أسباب هذه العلاقة في الأمور الآتية: أ- وجود الإنسان من أساسه يرجع إلى الله؛ ب- إن الله مقصد يلجأ إليه التائبون؛ ج- هو الخبير بعالم الغيب؛ د- هو الحقيقة المطلقة.

- ٣- الدنيا بالنسبة إلى الشاعر تشبه سجنًا مشحونًا بالحق والعداء؛ ولذلك، يعقد أمله في الخلاص من هذه الدنيا ويشتاق إلى لقاء الله.
- ٤- من المواضيع الأخرى التي تظهر في أشعار العلامة فضل الله، الدعاء ومناجاة رب العالمين. فإنه يعتقد بأن الدعاء هو السلاح الأمثل للخلاص من العذاب الإلهي؛ فيسأل الله في أدعيته أن يهديه إلى الطريق السوي ويمنّ عليه بمقام «برد اليقين».
- ٥- يتأثر الشاعر وبسبب دراسته في حوزة النجف الأشرف العلمية، ببيئتها المعنوية، ولذلك، يمكن ملاحظة تأثير القرآن بوضوح في أشعاره.
- ٦- تحظى أشعار الشاعر ببلاغة وفصاحة متكاملتين، فقد استخدم لبيان أغراضه التشبيهات، والاستعارات، والتقديم، والتأخير، والتكرار، وسائر الأوصاف الأدبية على أحسن وجه.

هوامش البحث

- ١- فضل الله، علي شاطئ الوجدان، ص ١١ و ١٢.
- ٢- أبو صالح، السيد محمد حسين فضل الله شاعراً، ص ٧١.
- ٣- فضل الله، خطوات علي طريق الإسلام، ص ١٠٥.
- ٤- أبو صالح، السيد محمد حسين فضل الله شاعراً، ص ٧٢.
- ٥- الخاقاني، شعراء الغري، ج ٨، ص ٣٠٦؛ الأميني، معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام، ج ٢، ص ٩٤٣.
- ٦- مهدي، الاتجاه الروحي في شعر السيد محمد حسين فضل الله، ص ٣١؛ سرور، العلامة فضل الله و تحدي الممنوع، ص ١٩؛ أبو صالح، السيد محمد حسين فضل الله شاعراً، ص ٢٤.
- ٧- أبو صالح، السيد محمد حسين فضل الله شاعراً، ص ٢٤.
- ٨- فضل الله، مطارحات في الشعر والفن والأدب، ص ٣٨.
- ٩- أبو صالح، السيد محمد حسين فضل الله شاعراً، ص ٢٩.
- ١٠- المصدر نفسه، ص ٦١.
- ١١- مهدي، الاتجاه الروحي في شعر السيد محمد حسين فضل الله، ص ٣٨.

- ١٢ - أبوصالح، السيد محمد حسين فضل الله شاعراً، ص ٥٨.
- ١٣ - المصدر نفسه، ص ٦٠.
- ١٤ - مصطفىوي، التحقيق في كلمات القرآن، ج ٣، صص ٦١-٦٢.
- ١٥ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤٥.
- ١٦ - المؤمنون، ١١٥.
- ١٧ - الطارق، ٥.
- ١٨ - الأعراف، ٥٠.
- ١٩ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٠.
- ٢٠ - الزمر، ٦٢.
- ٢١ - الأنعام، ٦٠.
- ٢٢ - الطبرسي، جوامع الجامع، ج ١، ص ٣٨٤.
- ٢٣ - التوبة، ١٦.
- ٢٤ - هود، ١٢٣.
- ٢٥ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٩.
- ٢٦ - الأعلى، ١.
- ٢٧ - طه، ١١٤.
- ٢٨ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، صص ٤٦-٤٥.
- ٢٩ - حوراني، شاعر الحياة، ص ٢٨١.
- ٣٠ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٣٤٣.
- ٣١ - الإخلاص، ١، ٢، ٣.
- ٣٢ - الرحمن، ٢٦ و ٢٧.
- ٣٣ - مهدي، الاتجاه الروحي في شعر السيد محمد حسين فضل الله، ص ٩٨.
- ٣٤ - البقرة، ٢٥٧.
- ٣٥ - مهدي، الاتجاه الروحي في شعر السيد محمد حسين فضل الله، ص ١٠٠.
- ٣٦ - المصدر نفسه، ص ١٠٣.
- ٣٧ - المصدر نفسه، ص ١٠٣.

- ٣٨ - المجادلة، ٢٢.
- ٣٩ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٣٥.
- ٤٠ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٣.
- ٤١ - البقرة، ١٧٣.
- ٤٢ - المائدة، ١١٩.
- ٤٣ - مهدي، الاتجاه الروحي في شعر السيد محمد حسين فضل الله، ص ١١١.
- ٤٤ - البقرة، ٢٢٢.
- ٤٥ - الغافر، ٣.
- ٤٦ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢١.
- ٤٧ - حوراني، شاعر الحياة، ص ٢٧٧.
- ٤٨ - البقرة، ٣.
- ٤٩ - حوراني، شاعر، الحياة، ص ٢٨٠.
- ٥٠ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٦.
- ٥١ - المصدر نفسه، ص ٢٨.
- ٥٢ - المصدر نفسه، ص ١٦.
- ٥٣ - المصدر نفسه، ص ١٣٢.
- ٥٤ - المصدر نفسه، ص ١٩.
- ٥٥ - المصدر نفسه، ص ٤٢.
- ٥٦ - فضل الله، مطارحات في الشعر والفن والأدب، ص ٢١.
- ٥٧ - الحر العاملي، وسائل الشيعة، صص ٢٧ و ٢٨.
- ٥٨ - الغافر، ٦٠.
- ٥٩ - الطبرسي، جوامع الجامع، ج ٤، ص ١٦.
- ٦٠ - فضل الله، من وحي القرآن، ج ٢٠، ص ٧٧.
- ٦١ - مهدي، الاتجاه الروحي في شعر السيد محمد حسين فضل الله، ص ١٦٠.
- ٦٢ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٠.
- ٦٣ - شلتاغ، حداث الشعر الإسلامي المعاصر، ص ١٦.
- ٦٤ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٣.
- ٦٥ - المصدر نفسه، ص ١٩.
- ٦٦ - الفاتحة، ٦.
- ٦٧ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ١٥.
- ٦٨ - الآمدي، غرر الحكم ودرر الحكم، ص ٦١.

٦٩ - فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٠.

٧٠ - المصدر نفسه، ص ١٤.

٧١ - المصدر نفسه، ٤٠٥.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبدي به القرآن الكريم .

- ١- الأمدي، عبد الواحد بن محمد التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، دار نشر مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٩٨٧م.
- ٢- أبوصالح، إسماعيل خليل، السيد محمد حسين فضل الله شاعراً، دار الملاك، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م.
- ٣- أميني، محمد هادي، معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام، ط ١، ١٩٦٤م.
- ٤- الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، قم، ١٤٠٩هـ.ق.
- ٥- حوراني، رامز، شاعر الحياة دراسة في شعر العلامة المرجع السيد محمد حسين فضل الله، دار الأمير، بيروت، ط ١، ٢٠١٥م.
- ٦- الخاقاني، علي، شعراء الغري، النجف، المطبعة الحيدرية، ١٩٥٦م.
- ٧- سرور، علي حسن، العلامة فضل الله وتحدي المنوع، دار الملاك، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م.
- ٨- شلتاغ، عيود، حدائق الشعر الإسلامي المعاصر، دار الملاك، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢م.
- ٩- الطبرسي، فضل بن حسن، جوامع الجامع، دار نشر جامعة طهران وإدارة الحوزة العلمية في قم، ١٩٩٨م.
- ١٠- فضل الله، محمد حسين، قصائد للإسلام والحياة، دار الملاك، بيروت، ط ٢، ٢٠٠١م.
- ١١-، خطوات علي طريق الإسلام، دار التعارف، بيروت، ١٩٨٢م.
- ١٢-، على شاطئ الوجدان، دار الريس، لندن، ط ١، ١٩٩٠م.
- ١٣-، مطارحات في الشعر والفن والأدب، دار الملاك، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦م.
- ١٤-، من وحي القرآن، دار الزهراء، بيروت، ١٤٠٨هـ.ق.
- ١٥- مصطفىوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن، بن گاه ترجمه ونشر كتاب، تهران، ١٣٦٠ ش.هـ.
- ١٦- مهتدي، حسين، الحقول الدلالية الدينية في أشعار العلامة السيد محمد حسين فضل الله ديوان قصائد للإسلام والحياة نموذجاً، مجلة بحوث في اللغة العربية، العدد ١٨، ٢٠١٨م.
- ١٧- مهدي، علي رفعت، الاتجاه الروحي في شعر السيد محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م.
- ١٨-، (٢٠١٣/٥/١٤)، الخطوط العامة في منهج السيد فضل الله في معرفة الله، <http://arabic.bayynat.org/ArticlePage.aspx?id=>